حكايات من التاريخ

٣

شفيت ببركة هذا الحكيم

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

يَالَهُ مِنْ طَبِيْبٍ مَاهِرٍ!!

جَلَسَتْ (مُنتَهى) إلى جِوَارِ جَدَّتِهَا وسألَتْهَا: لِمَاذَا لا تَحْكِيْ لَنَا حِكَايَاتٍ ، كَمَا تَفْعَل جَدَّةُ صَدِيْقَتِيْ (نُوْرَا) مَعَ أَحْفَادِهَا؟ إِنَّهَا تَحْكِي لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ حكَايَةً... ، وَهُمْ يَنْتَظِرُون السَّهْرَةَ بِكُلِّ شَوْقٍ لِيَسْتَمِعُوا إلى حِكَايَاتِ جَدَّتِهِمْ..!

ابْتَسَمَتِ الجَدَّةُ مِنْ كَلامِ حَفِيْدَتِهَا ، ثُمَّ ضَمَّتْهَا إِلى صَدْرِهَا ، وَقَالَتْ لَهَا: لا تَحْزَني يا عَزِيزَتِي! فَفِي هَذا اليَوْمِ أَشْعُرُ بِنَشَاطٍ في جَسَدِي ، وفي السَّهْرَةِ سَأَحْكِيَ لَكُمْ بَعْضَ

الحِكَايَاتِ ـ إنْ شَاءَ اللهُ ـ فلا بَأْسَ أَنْ تُخْبِرِيْ أَخَوَاتَكِ ، وإِخْوَتَك ، بالمَوْعِدِ.

ولَمَّا كانَتْ بِدَايَةُ السَّهْرَةِ تَحَلَّقَ الأوْلادُ حَوْلَ جَدَّتِهِمْ ، وأنْصَتُوا إِلَيْهَا.

وكانَ بِدَايَةُ حَدِيثِها بَعْضَ التَّوْجِيْهات ، والإِرْشَادَاتِ ، وَالنَّصَائِحِ ، وكانَ مِمَّا قَالَتْهُ لَهُمْ: يَا أَحْفَادِي!

الحِكَايَاتُ الَّتِي يَتَنَاقَلُهَا النَّاس جِيْلاً بَعْدَ جِيْلٍ لا تُقَالُ للتَّسْلِيَةِ ، إنما تُرْوى لِلْعِبْرَةِ ، والعِظَةِ ، وَمِنْ هُنَا نَفْهَم السِّرَّ وَرَاءَ ذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ لِقصَصِ الأَنبيَاءِ.

قَال تَعالى في أواخِرِ قِصَّةِ نَبِيِّهِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وَالعَاقِلُ مَن اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ... وَرَحِمَ اللهُ الإِمَامَ أَبَا حَنِيْفَةَ عِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ حِكَايَاتِ السَّابِقِيْنَ فأجَابَ: (الحِكَايَاتُ مَنِ العُلَمَاءِ، ومَحاسِنِهِمْ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ كَثِيْرٍ مِنَ الفِقْهِ؛ لأنَّها مِنْ آدابِ القَوْمِ...).

لِذَلِكَ يَا أَحْبَابِي! أَرْجُو مِنْكُمْ أَنْ تَنْتَبِهُوا إِلى مَا نَسْتَفِيْدُ مِنَ الحِكَايَةِ.

وهَا أَنَذَا سَأَحْكِيْ لَكُمْ حِكَايَةَ رَجُلٍ ادَّعَى أَنَّه طَبِيْبٌ:

في أَحَدِ شَوَارِعِ بَغْداد رَأَى رَجُلٌ النَّاسَ مُجْتَمِعِيْنَ حَوْلَ شَخْصٍ.

فاقْتَرَب مِنَ التَّجَمُّعِ فرأى رَجُلاً يَصِف لِهَذَا النُّقُوْع... ولِهَذَا التَّمر الهِنْديّ، وَلِذَاكَ

كَـذَا... والنَّـاسُ تُغـدِقُ عَلَيْـهِ الـدَّرَاهـمَ ، والدَّنَانِيْرَ.

فَقَال في نَفسِهِ: ومَنْ لا يُحْسِنُ مِثْلَ هَذَا؟

فَرَجَعَ إلى زَوْجَتِهِ وقَدْ قَرَّرَ في نَفْسِهِ تَرْكَ مِهْنَةِ الحِيَاكَةِ ، فَلَمَّا دَخَلَ بَيْتَهُ؛ قَالَ لِزَوْجَتِهِ: اجْعَلِي عِمَامَتِي كبْيرَةً!

فَقالَتْ: وَيْحَكَ؛ أيُّ شَيءٍ قَدْ طَرَأ لَكَ؟!

قالَ: أُرِيْدُ أَنْ أَكُونَ طَبِيْباً!

قالَتْ: لا تَفْعَل! فَإِنَّكَ تَقْتُلُ النَّاسَ ، فَيَقْتُلُوكَ..!

قـالَ: لا ، إِنَّـكِ لا تَـدْرِيْـنَ مَصْلَحَتِـيْ ، ومَصْلَحَتكُمْ مَعِي..!

وَعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ، وجَلَـس عَلـى أَحَـدِ الشـوارع المُـزْدَحِمَـة ،

وراحَ يَصِفُ للنَّاسِ ، فحصَّل بَعْضَ الدَّرَاهِمِ والدَّنَانِيْرِ.

ولَمَّا عَاد مَساءً إِلَى بَيْتِهِ؛ قالَ لِزَوْجَتِهِ: أَنَا كُنْتُ مُغَفَّلاً ، أَعْمَل طِيْلَة النَّهَارِ ، ولا أُحَصِّل إلا لُقمَةَ العَيْشِ ، أَمَّا اليَوْمَ فَقَدْ حَصَّلْتُ الكَثِيْرَ..!

وأعَادَ الكَرَّةَ مَرَّةً ثَانِيَةً ، ومَرَّتْ بِهِ جَارِيَةٌ ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إلى سَيِّدتِهَا ـ وكانَتْ شَدِيْدَةَ المَرَض ـ قَالَت لها: لَقَدِ اشْتَهيتُ هَذا الطَّبِيْبَ الجَدِيْدَ يُدَاوِيْكِ ، فالنَّاسُ مُتَحَلِّقُوْنَ حَوْلَهُ ، وَكُلُّهُمْ يَمْدَحُهُ ويَشْكُرُهُ على صَنِيْعِهِ.

فَقَالتِ السَّيِّدَةُ لِلْجَارِيَةِ: ابْعَثِيْ إِلَيْه ، وأعْطِيْهِ مِنَ الدَّنَانِيْرِ مَا يُرِيْدُ...!

وجَاءَ الرَّجُلُ إلى البَيْتِ ، فَلَمَّا رآها؛

قالَ في نَفْسِهِ: هذِهِ المرأةُ لَيْسَتْ مَرِيْضَةً ، إِنَّما هي ضَعِيْفَةٌ.. فَتَظَاهَرَ أَنَّهُ يَقُوْمُ بِفَحْصِهَا ، ثُمَّ نَادَى الخَادِمَة ، وَقَالَ: عَلَيَّ بِدَجَاجَةٍ مَطْبُوخَةٍ ، فَجِيء بِهَا ، فأَكَلتِ السَّيِّدَةُ ، فَقَوِيَتْ ، ثُمَّ اسْتَقَامَتْ.

وطَارتْ شُهْرةُ الرَّجُلِ في المَدِيْنَةِ ، وَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ إلى السُّلْطَانِ؛ أَمَر بإِحضَارِهِ فَوْرَاً.

ولَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ أَمرَ السُّلْطَانُ جَمِيْعَ الحشَمِ ، والخَدَمِ ، والحَرَسِ بالخُرُوْجِ ، وبَقِيَ مَعَ الرَّجُلِ فَحَسْب ، فأَخْبَرَهُ بِمَرَضٍ يُعَانِي مِنْهُ ، ولا يَرْغَبُ أَنْ يَطَّلِع عَلَيْهِ أَحَدٌ.. فَوَصَف لَهُ العَسَل ، وبَعْضَ أَنْواعٍ مِنَ الأعْشَابِ.

ويَشاءُ اللهُ تَعَالى أَنْ يَكْتُبَ الشِّفَاءَ عَلَى

يَدَيْهِ... فَمَا كانَ مِنْ السُّلْطَانِ إلا أَنْ قَرَّبَهُ إِلَيْهِ... وأَعْطَاهُ كلَّ مَا يَتمَنَّىٰ.

فَتَغَيَّر حالُ الرَّجُلِ ، وأَصْبَحَ على كُلِّ لِسَانٍ ، حتَّى خَافَتْ عَلَيْهِ زَوْجُه مِنَ الحَسَدِ و...!

ـ وَكَما هِيَ العَادَةُ ـ فَقدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاس إلى المُقَرَّبِيْنَ مِنَ السُّلْطَانِ ، وَقالُوا لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ بِطَبِيْبٍ... وإِنَّمَا نَحْنُ نَعْرِفُهُ مُنْذُ سَنَواتٍ ، فَهُوَ يَعْمَلُ في مِهْنَةِ الحِيَاكَةِ.

وَصَلَ الخَبَرُ إلى السُّلْطَانِ ، فَقَالَ: هذَا قَدْ أَجْرَى الله شِفَائي على يَدَيْهِ ، فلا أَقْبَلُ قَوْلَكُمْ فِيْهِ... ولا الطَّعْنَ في خِبْرَتِهِ.

فَقَالُوا: فَجَرِّبْهُ في مسَائِلَ طِبِّيَّةٍ.

قـالَ السُّلْطَـانُ: افْعَلَـوُا ، وأَخْبِـرُونِـيْ بالنَّتِيْجَةِ!

فَوَضَعُوا لَه مَسَائِلَ وسأَلُوْهُ عَنْهَا ، فَقَال الرَّجُلُ: إِنْ أَجَبْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ المسَائِلِ؛ لَمْ تَعْلَمُوا جَوابَها!

قالُوا: وكَيْفَ ذَلِكَ؟

قالَ: لأنَّ الجَوابَ عَلَى هَذِهِ المَسَائِلِ لا يَعْرِفُهُ إلا طَبِيْبٌ.

فَقَالوا: فَلْنحْتَكمْ إلى مَنْ تَخْتَارُ مِنْ أَطِبَّاءِ دَوْلَةِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ.

قَالَ: لا ، ولَكِنْ أَلَيْسَ عِنْدَكُمْ مَارِسْتَانُ ـ مَشْفَىٰ ـ؟!

قالُوا: بلَى.

قالَ: أَلَيْسَ فِيْهِ مَرْضَى لَهُمْ مُدَّةٌ؟

قالُوا: بَلَى.

قالَ: فأَنا أُداوِيْهِمْ حَتَّى يَنْهَضَ الكُلُّ في عافِيَةٍ ، وَذَلِكَ خِلال سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَهَلْ يَكُوْنُ دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ؟!

قالُوا: لا.

فَجَاءَ إلى بَابِ المَارِسْتَانِ ، وَقَالَ: اقْعُدُوا ، لا يَدْخُلْ مَعِيَ أَحَدٌ ، ثُمَّ دَخَلَ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ مَعَهُ إلا قَيِّم المَارِسْتَانِ.

فَقالَ لِلْقَيِّم: إنَّكَ واللهِ! إنْ تحدَّثْتَ بِمَا أَعْمَلُ؛ صَلَبتُكَ ، وإنْ سَكَتَّ أغْنَيْتُكَ.

قالَ: لا أَنْطِقُ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ!

فَقالَ: لا أُصَدِّقُكَ حَتَّى تَحْلِفَ بالطَّلاقِ عَلَى ذَلِكَ.

فَحَلَفَ القَيِّمُ بالطَّلاقِ على ألا يَتَحدَّث

عَنْ شَيْءٍ مِمَّا سَيَفْعَلُهُ الرَّجُلُ.

ثُمَّ قالَ: عِنْدَكَ في هذا المَارِسْتَانِ زَيْتٌ؟

قالَ القَيِّمُ: نَعَمْ.

قالَ الرَّجُلُ: أُرِيْدُ كَثِيراً مِنْ الزَّيْتِ ، وكَذلِكَ أُرِيْدُ قِدْراً كَبِيراً.

فأحْضَرَ القَيِّمُ القِدْرَ... وَصَبَّ فِيْهِ الزَّيْتَ ، وأَوْقَدَ النَّارَ تَحْتَ القِدْرِ؛ حَتَّى إِذَا ما اشْتَدَّ غَلَيانُهُ؛ صَاحَ بِجَمَاعَةٍ مِنَ المَرْضَى.

فَلَمَّا تَحَلَّقُوا حَوْلَ القِدْرِ؛ قالَ الرَّجُلُ لأحَدِهِمْ: إِنَّ مَرَضَكَ لا يُصْلِحُهُ إلا أَنْ تَنْزِلَ إِلَى هَذَا القِدْر ، فَتَقْعُد في الزَّيْتِ المَغْلِيِّ!

فَصَاحَ المَرِيْض: اللهَ اللهَ في أمري...!

قالَ الرَّجُلُ: لابُدَّ مِنْ ذَلِكَ.

قالَ المَرِيْض: أَنَا قَدْ شُفِيْتُ ، وإِنَّما كان بي قَلِيْلٌ مِنَ الصُّدَاعِ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلِمَاذَا تَجْلِس في المَارِسْتَانِ؛ وأَنْتَ مُعَافى؟

قَالَ: لا شَيْءَ!

قالَ: فَاخْرُجْ عَلَى الفَوْرِ ، فَخَرَج المَرِيْضُ يَعْدُو ـ ويَقُولُ: شُفِيْتُ بإِقْبَالِ هَذَا الحَكِيْمِ!

ثُمَّ جَاء إلى آخَرَ ، فَقَالَ: لاَ يَصْلُحُ لمَرَضِكَ إلا أَنْ تَقْعُدَ في هذَا الزَّيْتِ.

فَقَالَ: اللهَ اللهَ! أَنَا في عَافِيَةٍ..!

قالَ: لا بدَّ...!

قالَ المَرِيْضُ: لا تَفْعَلْ؛ فَإِنّي مِنْ أَمْسِ أَرَدْتُ أَنْ أَخْرُجَ...!

قالَ: إِنْ كُنْتَ في عَافِيَةٍ؛ فَلِمَاذَا تَجلِسُ في

المَارِسْتَانِ ، فاخْرُجْ عَلى الفَوْرِ ، وأخْبِرِ النَّاسَ بِأَنَّك في عَافِيَةٍ.

فخَرجَ المَرِيْضُ يَعْدُو وَهُوَ يَقُولُ: شُفِيْتُ بِبَرَكَةِ هَذَا الحَكِيْمِ.

ومَا زَالَ عَلى هَذَا الوَصْفِ حَتَّىٰ أَخْرَجَ الكُلَّ شَاكِرِيْنَ لَهُ!!

امْتِحَانٌ... لَكِنَّهُ عَصِيْبٌ!!

... وفَـرِحَ الأَطْفَـالُ بِتِلْـكَ الحِكَـايَـةِ... وَطَلَبُوا مِنْ جَدَّتِهِمْ حِكَايَةً أُخْرَىٰ ، فَهَزَّتْ رأْسَهَا وَقَالَتْ: ولكِنَّها حِكايَةٌ قَصِيْرَةٌ ، وَرَاحَتْ تَحْكِيْ لَهُمْ هَذِهِ الحِكَايَةَ:

قالَ (يُوسُفُ بنُ الحُسَيْنِ): قِيْلَ لِيْ: إنَّ ذَا النُّونِ يَعْرِفُ اسْمَ اللهِ الأَعْظَم ، فَدَخَلْتُ مِصْرَ

وخَدَمْتُهُ مُدَّةَ سَنَةٍ ، ثُم قُلْتُ لَهُ: يَا أُسْتَاذِيَ! إِنِّيْ خَدَمْتُكَ هَذِهِ المُدَّةَ ، فأُحِبُّ أنْ تُعَلِّمَنِي اسْمَ اللهِ الأَعْظَمَ ، فَسَكَتَ عَنِّي فَتْرَةً طَوِيلةً ، وذاتَ لَيلَةٍ قالَ لِيْ: يَا يُوسُفُ! إِنَّ لِيْ صَدِيقاً يَسْكُنُ في مِنْطِقَةِ (الفُسْطَاطِ) ، ونَحْنُ هُنَا في مَنْطقَةِ (الجِيْزَةِ) وكما تَعْلَمُ فالْمَسَافَةُ بَيْنَ المنْطِقَتَيْنِ كَبِيْرَةٌ! ولَكِنِّي أَرْغَبُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَيْهِ هَذِهِ الأَمَانَةَ.

قُلْتُ: على الرَّحْبِ والسَّعَةِ ، فأَخَذَ كِيْساً وَوَضَع فِيْهِ طَبَقَاً ومَكَبَّةً مَشْدُودةً في مِنْدِيْلٍ.

وَقَالَ لِيْ: انْطَلِقْ عَلَى بَرَكةِ اللهِ...!

فتحَمَّلتُ الطَّبَقَ وَسِرْتُ... وَذَات لَيْلةٍ قُلْتُ في نَفْسِي: هَل مِثْلُ (ذِي النُّون) يوجِّهُ إلى صَدِيْقِهِ بِهَدِيَّةٍ مِثْلَ ذَلِكَ؟ لَعَلَّ في المَسأَلةِ لُغْزَاً!

فَجَلَسْتُ على جِسْرٍ ، وحَلَلْتُ المِنْدِيْلَ ورَفَعْتُ المكَبَّةَ ، فإِذَا فأْرَةٌ قَفَزَتْ مِنَ الطَّبَقِ ، وَجَرَتْ بِسُرْعَةٍ.

فَقُلْتُ في نَفْسِي: (ذُو النُّونِ) يَسْخَرُ بِيَ ، وَيُوَجِّهُ مَعَ مِثلِي فأْرَةً!! فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ وأَنا غَضْبَانُ ، فَلَمَّا رآني؛ عَرَفَ مَا فِي وَجْهِي.

ثُمَّ قالَ لي: يا أَحْمَقُ! لَقَدْ ائْتَمَنَّاكَ على فَأْرَةٍ ، فَخُنْتَنَا ، فَكَيْفَ نأْتَمِنُكَ عَلَى اسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ؟!

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِيْنَ

* * *